تيليماك لفينلون

بقلم: الأستاذ إيليا نعمان حكيم

بقلم: الأستاذ إيليا نعمان حكيم

Le « Télémaque » de « Fénelon »

لايكاد القارىء العربي يعرف شيئا عن الكاتب الفرنسي « فينلون » كذلك لايكاد القارىءالفرنسي يذكر له الا كتابا واحدا هو « تيليماك » على الرغم من كتاباته الغزيرة التي شغلت الرأي العام الفرنسي طوال الفترة الأخيرة من عصر الملك لويس الرابع عشر ، وأثارت معارك دينية حامية تردد صداها في باريس وروما ، وأهمها معركة الصوفية المسماة بالـ «Quiétisme» أو «التسليم»

ولن ندخل في تفاصيل هذا الجانب من حياة فينلون الأدبية ، ولكننا سنقتصر في دراستناعلى قصة « تيليماك » التي كانت سبب تعاسة فينلون في سنواته الأخيرة ، وفي الوقت نفسه طريقه الى الخلود في تاريخ الأدب الفرنسي والعالمي ، وقبل أن نتناول بالتحليل والشرح هذا الكتاب ، نبدأ بشيء من ترجمة صاحبه .

ينحدر فينلون من أسرة عريقة في النسب من مقاطعة «بيريجور» في جنوب غربي فرنسا ، واسمه بالكامل « فرانسوا دي ساليناك دي لاموت » ، ولد عام ١٦٥١ في السادس من شهر أغسطس، وكان ثاني أربعة أشقاء من أمه «لويز دي ساتتابر» التي تزوجها أبوه عام ١٦٤٧ بعد وفاة زوجته الأولى التي رزق منها أحد عشر ولدا .

ولم تكن أسرته على الرغم من انتسابها الى طبقة النبلاء على جانب عريض من الثراء . وكانت الحياة في قصر بيريجور تتميز بالبساطة والاعتدال مع كثير من التعفف ودماثة الخلق وكرم النفس .

وقد عنى أبوه بتربيته منذ طفولته تربيةفاضلة، غارسا في روحه حب الدراسات الانسانية . وأقبل الطفل على قراءة الأساطير اليونانية واللاتينية وتشبع بها .

وبعد موت أبيه عام ١٦٦٢ ، تولت أمه رعايته، وأودعته مدرسة « الجزويت » في مدينة كاهور لمواصلة دراساته الأدبية . وكان الفتى نحيفا شاحب الوجه ، ولكنه صلب العود ، تعلوه مسحة من

الوقار واباء النفس ، مع الرقة والوداعة ، والميل الى التقوى والعبادة . وكانت هذه الصفات تنبىء بمصيره الى الكهنوت .

ولما بلغ الخامسة عشرة من العمر ، قصد الى باريس وألحقه عمه المركيز أنطوان دى فينلون بكلية « بليسى » ليتلقى علومه الفلسفية واللاهوتية ، ثم بدير «سان سولبيس» اعدادا له للدخول فى سلك الكهنوت .

وعقب تخرجه من « سان سولبيس » بعد رسمه كاهنا ، عهد اليه بالتعليم الدينى لأبناء الحى ، وكانت أحلام القس الشاب أبعد من هذا، اذ كان يتطلع الى التبشير فى المستعمرات . وهكذا بدأ حياته العملية على هذا النحو المتواضع كمعلم للدين الى جانب الخدمات الكنسية اليومية الأخرى.

وفى عام ١٦٧٨ أسندت اليه ادارة دار « الكاثوليكيات الجديدات »، وكانت هذه الدار تستقبل الفتيات والسيدات من بنات الأسر البروتستنتية التى اعتنقت المذهب الكاثوليكى ، بعد حملات التبشير التى أمر الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٧٨ بارسالها الى شتى أنحاء البلاد لتوحيد الدين المسيحى ، وعدم السماح بنشر أى مذهب آخر غير الكاثوليكى ، وكان قرار «نانت» قد ألغى وألغيت معه أحكام التسامح الدينى ، وكان رؤساء البعثات التبشيرية يصطحبون معهم نفرا من الجند المضغط أحيانا ، أو لحمايتهم اذادعا الأمر . ويذكر المؤرخون أن فينلون رفض أن يكون أثناء مهمته تحت أى حراسة مسلحة وكان يقول ان أى تغيير فى المذهب يجب أن ينبع من القلب نفسه ، ولهذا كان يبذل جهده فى اكتساب القلوب مع تمسكه الذى لايلين بضرورة وحدة الكنيسة، وبحقها فى استرداد « الخراف الضالة » اليها .

وكانت مواعظه ورسائله وارشاداته تغزر وتنتشر وتشد اليه أسماع وأذهان الحكام وكبار المسئولين من رجال الكنيسة ، حتى استعان به « بوسويه » وكان ألمع شخصية كنسية فى ذلك الوقت للرد على رسالة الفيلسوف « مالبرانش » التى نشرها عام ١٦٨١ تحت عنوان « الطبيعة والنعمة الالهية» والتى تقول بنظام موضوع ثابت للكون ، وأن النعمة الالهية لاتمنح للشخص الا فى اطار هذا النظام الثابت الشامل ، بينما يقول « بوسويه » فى احدى مواعظه ان الله يدرك الممالك ويقيمها من أجل خلاص نفس واحدة .

ولم تظهر رسالة فينلون التى دحض بها نظرية « مالبرانش » الا بعد موته بكثير ، شأنها فى ذلك شأن معظم كتاباته لم ينشر منها غير القليل فى حياته .

وأول كتاب لفينلون كان له أثر فى ذلك الوقت هو كتاب « تعليم البنات وتربيتهن » الذى كتبه عام ١٦٨٤ وأهداه الى الدوقة دى بوفيلييه وهى أم لثمانى بنات . ويضع النقاد هذا الأثر التربوى فى صف كتاب « اميل » لجان جاك روسو ،ويعتمد فيه مؤلفه على دراسة الطبيعة النسائية دراسة عميقة ، وتوجيه التربية فى ضوء هذه الدراسة ، وبنائها على أساس القدرات والنقائص التى تتضح منها . ويقول ان الأنماط العجيبة من النساء التى نشاهدها انما مصدرها فراغ أذهانهن ، ولهذا ينصح بتلقينهن عددا من المعارف والعلوم الأساسية على أن يكون التدريس عمليا أكثر منه نظريا ، وأن يستخدم فيه جانب الحس أكثر من جانب

المنطق ، وأن يكون الهدف الأول من ذلك كله هو اعدادهن للقيام على خير وجه بدورهن في الأسرة .

وكان هذا الكتاب الصغير سببا فى ذيوع صيت فينلون وكسب صداقات كثيرة له من كبار القوم. ولكنه مع ذلك لم يسع للحصول على أية رتبة أكليركية عليا ، كان حريصا على كرامته ، يفرض نفسه على مستمعيه والمحيطين به بروحانيته ، وعذوبة حديثه ، ولباقته فى الحوار ، ورقتل فى آداب السلوك ، وابتسامته الدائمة ، كان لا يفتأ ينصح بالبساطة وصفاء الضمير والتقوى ، والايمان ، والارتماء بين أحضان الله ، والاعتماد الكلى عليه.

وفى عام ١٦٨٨ تعرف فينلون على سيدة كان لها أثر حاسم فى حياته ، هى « جان مارى بوفييه دى لاموت جويون » ويعرفها التاريخ باسم مدام « جويون » ، وكانت من أسرة كبيرة موسرة ، وقد أمضت أولى سنى شبابها موزعة بين مظاهر التبرج ونزعات التعبد ، بين مطالب الدنيا ، وفرائض الدين بنفس اللهفة ونفس الحماس ، وقد ترملت عام ١٦٧٦ ، فانصرفت عن الدنيا ، وعكفت على العبادة تمضى يومها فى الابتهال والتأمل ، بغية الوصول الى الله ، وقد راحت تدعو الى هذه النزعة الصوفية ، فى كتابها « الطريق القصير » وكانت على الرغم من ثقافتها المحدودة ، غزيرة الكلمة تشد المستمعين اليها شدا حتى سموها الساحرة ، وكانت قادرة على الكلام ساعات طويلة متواصلة ، ويمكن تلخيص دعوتها فى هذه الكلمات الواردة فى رسالتها بعنوان « تيارات » ، تصف حالة النفس عند وصولها الى الله ، تقول : « النفس لا تملك ، وانما هى مملوكة ، تسبح فى فضاء يمتد وينبسط يوما بعد يوم ، وكلما زاد فناؤها فى الله ، زادت قدراتها : كتيار الماء كلما امتد داخل البحر ، بعدت أرجاؤه ، وأصبح لا حدود له غير حدود البحر نفسه ، ولا يعود الله يظهر للنفس كشيء متميز عنها ولكنها تصبح لا تدرك من شيء الا أن الله كائن ، وهى لا كيان ولا وجود ولا حياة لها الا فى الله نفسه » .

وكانت السلطات قد أمرت بحجز مدام جويون فى أحد الأديرة ، ولكن وساطات أصدقائها وصديقاتها أفرجت عنها بعد شهور ، وفى ذلك الوقت عرفها فينلون ، ووجد فى دعوتها صدى لما كان يختلج فى نفسه من نزعة صوفية أساسها الحب الخالص أو التجرد المطلق من أى حس ، والاتصال بالله بالذكر والتأمل . وهو يقول ان الحب الكامل هو الا يعرف الانسان أنه يحب لأن الذات المحبة تفنى فى الذات المحبوبة ولا تتميز عنها .

وكانت أخلاق فينلون وما تميزت به من عمق الاحساس الدينى قد قربته من زمن بالدوق دى بوفيلييه ، ولما عين الدوق مشرفا على تربية أحفاد الملك لويس الرابع عشر ، طلب من فينلون أن يتولى بنفسه تعليم الدوق دى بورجونيو (١) أحد أحفاد الملك . ولم يقابل هذا التعيين بالدهشة من أحد ، بل رحب به الجميع ، وعلى رأسهم

---

(١) الدوق دى بورجونيو ١٦٨٢ ـ ١٧١٢ هو ابن الامير لويس دى فرانس ١٦٦١ ـ ١٧١١ وحفيد لويس الرابع عشر « ١٦٤٣ ـ ١٧١٥ » ، ووالد الملك لويس الخامس عشر الذى اصبح وليا للعهد عام ١٧١١ بعد موت أبيه الامير لويس . ولكنه مرض بمرض قضى عليه فى العام التالى ولما يتجاوز الثلاثين من العمر .

« بوسويه » نفسه « ومدام دى ماتنون » زوجة الملك الأخيرة ، ممن كانوا يشفقون على ما صارت اليه البلاد فى الآونة الأخيرة نتيجة سوء سلوك الملك وانصرافه الى ملذاته وغرامياته وكأنما كان الكل يشعر بأن ولاية العهد ستؤول يوما الى الدوق دى بورجونيو ، ولهذا وجدوا فى اختيار فينلون مربيا له سبيلا الى توجيه الأمير توجيها دينيا وخلقيا وعلميا كفيلا بأن ينقذ فرنسا من الهوة التى تردت فيها ، ويقيم نوعا من الحكم يقوم على أساس من الدين والفضيلة .

أما فينلون نفسه فكان موزعا بين عاملين ،عامل الرهبة ازاء هذه المسئولية الجسيمة وما يكتنفها من صعاب ، وعامل الرغبة فى أداء رسالة يؤمن أن الله اختاره لها .

ولم يكن الطفل الذى عهد اليه بتربيته سهل المراس ، وكان اذ ذاك فى السابعة من عمره .ويجمع المؤرخون على أنه كان على جانب كبير من الشراسة، والكبرياء والعناد ، وحب السيطرة ، واشتهاء اللذات . وقد رسم فينلون لنفسه سياسة تقوم على مرحلتين ، مرحلة الحد والردع والتشذيب ، ثم مرحلة التشييد والبناء من جديد .

وأخذ أساسا بالأسلوب التجريبى ، لا يعظ ولا ينصح وانما يضع الفتى أمام وقائع يختارها بعناية ويعرضها بصورة معينة ، ويترك تلميذه يتفاعل معها ، فتنتقل اليه الخبرات التى أرادها له معلمه وكان يرى فى اعتدال الطعام وممارسة الرياضة خير وسيلة لكبح جماح الطفل الثائر . وكانت العقوبات التى يلجأ اليها أشبه بمسرحيات ، لايوجه فيها للصبى لوما أو تقريعا ، وانما يهيىء خفية جو يختنق فيه المعاقب ، وهو لايعلم أنه فى حالة عقاب ، ويشعر أنه فاقد الحيلة ضعيف الشوكة ، كسيرا فى نفسه ، محتاجا لغيره .

ولم يفت فينلون ما للقصص من أثر فى التربية، فألف له الحكايات الخرافية على غرار حكايات « لافونتين » ، ولكنها تتميز بجوها الخيالى الشاعرى ، ونزعتها الدينية ، وتمجيدها للفضائل المثالية . كما ألف له كتاب « حوار الموتى » وقد نهج فيه نهج القدماء فى عرضهم الدروس الانسانية والعبر الخلقية والحكم والتجارب على لسان الموتى من الشخصيات التاريخية المعروفة ، من كتاب أو فنانين أو فلاسفة أو حكام . ولم تكن قصص فينلون تخلو من واقعية فجة أحيانا فى تصويره شخصيات مستوحاة من صميم الحياة .وفى سرده أحداثا مضحكة غريبة من واقع التجارب نفسها . ولم تكن شخصياته نماذج « لفضيلة » ، لا غبار البتة عليها ، حتى لايثير الشك فى صدر تلميذه من صحة مايقدم له ، حتى يعرف الفتى أن بعض الحياة حلو وبعضها مر ، وأنه لايوجد أناس معصومون من الزلل مهما بلغت فضائلهم ، أو قوم محرومون من التوبة والخلاص مهما كانت رذائلهم.

وقصة تيليماك من هذه القصص التى أراد بها صاحبها أن تكون مدرسة أخلاق وحكم وسياسة يتلقى فيها الأمير الفتى دروسه للمستقبل ، هى أشبه بانجيل وضع فى أسلوب قصصى ليرجع اليه تلميذه بين حين وحين .

كتب فينلون قصته عام ١٦٩٤ ، وهو فى أوج مجده ، وكان قد عين عضوا فى الأكاديمية الفرنسية عام ١٦٩٣ ، وعلى الرغم من أن الملك لويس الرابع عشر لم يكن يشعر نحوه بأى حب لما كان يبلغه من

معارضته لروح الحكم السائدة فى هذا العصر[1]، لم يشأ أن يتخلف عن تقدير هذا القس المهذب الفصيح ، فرقاه اسقفا فى ناحية «كامبريه» عام ١٦٩٥ ، فكان ذلك تتويجا لفينلون ، ولكنه تتويج لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما أخذ نجمه المتصاعد يهبط شيئا فشيئا على أثر المعركة الدينية الصوفية التى أشرنا اليها فى مقدمة هذه الترجمة ، والتى يذكرها تاريخ الأدب تحت اسم الـ Quiétisme ، واخترنا لها بالعربية اسم « التسليم » ، وهو مذهب صوفى نادى به الكاهن الأسبانى « مونينوس » فى القرن السابع عشر ، ويقول ان الانسان يستطيع الاتصال بالله مباشرة بالانجذاب والتأمل،والتسليم الروحى ، وفقدان الحس المادى الى حد أن النفس تصبح غير مسئولة عن أعمال الجسد ، والكلمة مشتقة من معنى السكون ، وقد صادرت الكنيسة عام ١٦٨٧ كتاب مولينوس « المرشد الروحى » ، ولكن مذهبه انتشر فى فرنسا ، ووجدت مدام جويون فيه تقاربا مع دعوتها الى الحب الخالص والاستسلام المطلق لله ، والوصول الى هذه الحالة من العبادة التى تعفى من الفرائض الدينية أوالتفكير فيها ، فلا رجاء فى جزاء ولا خوف من عقاب، ولا حاجة الى الصلاة شفاهة ، ولا ضرورة لتعذيب البدن ، انما هى حالة من التعبد الصامت ،والسكون التام ، والتأمل فى الله حتى الوصول اليه .

أغرى هذا النوع من العبادة قوما كثيرين ومن بينهم فينلون ورجال دير « سان سير » « ومدام دى مانتنون» زوجة الملك المعروفة بالورع والتقشف ولكن سرعان ماتنبه بعض رجال الكنيسة الى خطورة هذه الدعوة التى تهدد بابعاد الناس عن الفرائض الدينية والتعاليم المسيحية ، واهمالهم دور الكنيسة فى رعاية أبنائها ، واكتفائهم بالاتصال المباشر بالله . وعقد مؤتمر دينى يعرف بمؤتمر « ايسى » استمرسنتين نوقشت فيه هذه الموضوعات الصوفية وأدينت حالات كثيرة من حالات التصوف ذات الجانب السلبى الذى يتعارض مع النشاط الدينى وكان فينلون من أبرز فرسان هذا المؤتمر وانتهت المرحلة الأولى من هذه المعركة لتبدأ المرحلة الثانية عندما أصدر « بوسويه » كتابه عن « حالات التعبد » هاجم فيه مدام جويون شخصيا . وصعب على فينلون أن تهاجم هذه المرأة بعد تركها جميع من كان حولها ، ودافع عن اخلاصها وصدق دعوتها ، على الرغم من عدم توفيقها فى التعبير عن نواياها . وأصدر كتابه « أقوال القديسين» عام ١٦٩٧ يعرض فيه جوانب الصحة وجوانب الزيف فى نزعات التصوف ، واتهم « بوسويه » هذا الكتاب بالهرطقة ، ورفع الأمر الى البابا فى روما ، بينما بدأت فى باريس معركة حامية الوطيس بين بوسيه وفينلون تراشقا فيها الانتقادات وبعض الاتهامات ، فى صور خطابات ومذكرات وتقارير يتبادلانها ، وأخيرا حسم الملك القضية ، واستطاع أن ينتزع من روما قرارا بادانة كتاب فينلون ، وخضع فينلون للأمر البابوى خاضعا مستسلما، وكان ذلك عام ١٧٩٩ ، وصدر أمر الملك بأن يلزم

---

(1) عثر المشتغلون بالمخطوطات عام ١٨٢٥ عن مخطوط رسالة بتاريخ ١٦٩٤ موجهة من فينلون للملك لويس الرابع عشر، وقد أثير كلام كثير حول صحة هذا المخطوط ، وقد تأكد هذا اليوم ، ولكن يحتمل جدا أن لايكون الخطاب نفسه قد وصل بالفعل ليد الملك . وقد جاء فى هذا الخطاب « لقد ولدتم يامولاى وقلبكم مفعم بالنزاهة والعدالة ، ولكن الذين رفعوكم لم يقدموا لكم من دروس الحكم غير الريبة والحسد والابتعاد عن الفضيلة ، وخشية أهل الفضل ، والميل الى أهل الرياء والملق ، والتعالى على الناس ، والاهتمام بمصلحتكم دون مصالح الآخرين » .

فينلون اسقفيته فى كامبريه ولا يعود يتردد على القصر ، وأن يحرم فى الوقت نفسه من لقب مرب للأمير ومن مخصصاته فى فرساى .

ولم يكد فينلون يفيق من هـذه الضربة حتى فاجأته أخرى ، ففى العام نفسه توصل أحد النساخ الى نشر قصة تيليماك دون اذن أو علم من فينلون الذى حرص منذ ١٦٩٤ على أن يظل كتـابه غير منشور . وما كاد الملك يبلغه خبر الكتاب ومافيه من هجاء للحكم القائم حتى أمر بمصادرته وزاد سخطه على فينلون وانقطعت كل أسباب الأمل فى العفو عنـه .

وانصرف فينلون الى أسقفيته بنشاط لا يفتـر وكانت الأنظار كلها تتطلع متعـاطفة مـع أسقف كامبريه الذى يعيش فى عزلته بعد أن ملأ الدنيا بعظاته وكتاباته ومعاركه ، وشد العالم الأوروبى كله اليه بقصته تيليماك (١) . وأصبحت « كامبريه » محجا لأهل الفكر والدين والعلم وكان فينلون وسط هذا الاعتبار الذى رده اليه الرأى العـام يحتفظ بهدوئه وتواضعه وبساطته . وفى هذه الأثناء كتب آخر مؤلفاته « اهتمامات الأكاديمية الفرنسية » وهو يتضمن آراءه فى الفنون الأدبية على اختلافها .

وفى عام ١٧١١ مات ولى العهد الأكبر ، وأصبح الدوق دى بورجونيو تلميذ فينلون ولى العهـد الجديد ، وتلطعت الأنظار مرة ثانية الى فينلون ، ولكن لم تمض شهور حتى مات الأمير ، وعندئذ قال فينلون : « لقد انقطعت الآن جميع صلاتى » واشتدت رغبته فى العزلة الى أن فاجـأته الحمى وألحت عليه الآلام . وأحس بساعته الأخيرة تدنو فطلب أن تتلى عليه آيات الكتاب المقدس . وفى السابع من يناير ١٧١٥ ، عند الفجر صـعدت روحه الى خالقها ، وهو يردد هذه الكلمـات : « لتكن مشيئتك لا مشيئتى » .

مات فينلون منفيا فى أسقفيته ، مغضوبا عليه من القصر ، مما أحرج كثيرين ممن كانوا يودون أن يرثوه كما ينبغى ، ولم تمض فترة طويلة حتى أخذت ذكراه تحيا من جديد ، ودخلت سيرته فى موكب الأساطير ، وتحدث الجيل من بعـده عن روحانيته ، وعن الشدائد التى صـادفها ، وعن اضطهاده ونفيه ، وعن كرمه وعطفه على الفقـراء مما جعل القرن الثامن عشر يشيد بمثاليته ، وكانت قراءة تيليماك وحدها تبعث فى النفس الراحـة والنشوة ، كانت بمثابة واحة ظليلة يسـتريح عندها كل من أرهقته كتابات الفلاسفة والمفكرين.

***

كتب فينلون قصة تيليماك (١) عام ١٦٩٤ أثناء قيامه بتربية الدوق دى بورجونيو ، وكان يبغى منه تعليم الأمير فن الحكم . ومصادر القصة كثيرة ، منها الياذة هوميروس ، وقد أوحت للكاتب بالاطار العام الذى تدور فيه أحداث القصة ، ومسرحية سوفوكليس وأوديب التى اقتبس منها شـخصية فيلوكتيت ، وملحمة الاينيد لفرجيل ، وجمهورية أفلاطون ، وخواطر الفيلسوف اكزينوفون عن تأديب أبناء الملوك والحكام ..

---

(١) عندما صادرت حكومة الملك لويس الرابع عشر نسخة تيليماك التى ظهرت فى فرنسا ، تسربت نسخة خرى الى لاهاى فى هولنـدا حيث طبعت ونشرت وترجمت الى معظم اللغـات الاوربية .

(١) سبق أن ترجم هذا الكتاب بعنوان :
« مواقع الافلاك فى أخبار تلماك » لرفاعة رافع الطهطاوى »
وطبع ببيروت عام ١٨٦٧ — والترجمة تعريب بتصرف .
أما الترجمة الكاملة مع مقدمة موجزة فقد قام بها المرحوم عادل زعيتر ، وتوجد مطبوعة مشكلة فى طبعة أنيقة بدار المعارف « طبعة ١٩٥٧ » .

وتحكى القصة أخبار تيليماك ابن الملك اليونانى أوليس أثناء رحلاته من بلد الى بلد بحثا عن أبيه الذى ترك جزيرته ايتاك فخلفا الطفل وأمه بينيلوب ليشترك فى حرب طروادة . وانتهت الحرب ولم يعد أوليس ، ومرت سنوات طويلة ، وتهافت العشاق على بينيلوب ، وهى تبعدهم عنها بشتى الحيل ، ولما اشتد عود تيليماك عزم على البحث عن أبيه تصحبه الالهة «مينرفا» رمز الحكمة والمعرفة متقمصة شخصية شيخ يدعى منتور يلازم تيليماك فى تنقلاته يرشده وينصحه ويظهره على أحوال الشعوب ونظم الحكم .

وينقسم الكتاب الى ثمانية عشر فصلا وفى بعض الطبعات الى أربعة وعشرين . وتبدأ القصة بالعاصفة التى ألقت بتيليماك الى جزيرة حورية البحر «كاليبسو» التى آوت أوليس تسع سنوات متصلة وتعلقت به وكادت أن تهبه الخلود لولا تدخل الاله زوس الذى أمره بتركه يرحل ليعود الى موطنه وتستقبل كاليبسو تيليماك أحسن استقبال ، اذ ترى فيه صورة حية لأبيه ، ويروى لها تيليماك أخباره منذ غادر جزر ايتاكا الى أن رمته العاصفة على هذا الشاطىء .

يقول تيليماك فى روايته انه بعد رحيله من ايتاكا وصل الى جزيرة بيلوس ليستشير الملك نستور فى البحث عن أبيه ثم الى مدينة لاسيديمونا حيث قابل الملك مينيلاس الذى اشترك مع أوليس فى حرب طرواده ، ولكنه لم يحظ بشىء يفيده فى بحثه فصوب نحو صقلية وكاد أن يغرق عند شواطئها ، ولما علم الملك أسستى الطروادى بخبره أراد أن يفتك به ، ولكن شجاعة تيليماك ومروءته انقذتا الملك من غزوة البرابرة ، فكافأه الملك وأعطاه سفينة يواصل عليها رحلته . وتقع السفينة فى أسر ملك مصر سيزوستريس الذى يبيع منتور لتجار من الحبشة ، ويحتفظ بتيليماك راعيا لأغنامه . وبعد أحداث يتجه تيليماك نحو مدينة صور التى تبهره بمظاهر رخائها وثرائها . ومن هناك يرحل الى قبرص حيث يقابل مرة ثانية صديقه منتور وينتقلان معا الى جزيرة كريتا التى تخضع لقوانين مينوس ابن الاله زوس وقاضى قضاة الجحيم . وكان ايدومنيه ملك كريتا قد أثار غضب رعيته لأنه أراد أن يقدم ابنه قربانا للآلهة نذرا لها . فخلعه شعبه وطالب بتولية تيليماك عرش كريتا ولكنه أبى وقرر العودة الى ايتاكا بعد أن يئس من العثور على أبيه . وبينما هو ورفيقه فى طريقهما الى ايتاكا ، يثير نبتون عاصفة هوجاء تطيح بهما الى جزيرة كاليبسو .

الى هنا تنتهى الحلقة الأولى من أخبار تيليماك يرويها للحورية كاليبسو ، وهى تستمع اليه مسحورة بحديثه ، معجبة بفتوته ، وتود أن تستأثر به عشيقا لها بدلا من أبيه ، وتقدم له كل مايغريه بالبقاء عندها ، ولكن تيليماك يقع فى حب حورية أخرى تدعى أوخاريس . وتغضب كاليبسو غضبة الأنثى المجروحة فى كرامتها وفى حبها ، وتستعجل رحيل الرجلين ، وتأمر بسفينة لهما ، ولكن الحوارى ينتقمن لكاليبسو ويحرقن السفينة ، ويسبح تيليماك ومنتور حتى يصلا الى سفينة فينيقية تذهب بهما الى جزيرة سالنتا حيث استقر الملك ايدومنيه بعد طرده من كريتا . ويساعد تيليماك الملك ايدومنيه فى معاركه ضد أعدائه ، ويقوم منتور بادخال اصلاحات كثيرة على ادارة مدينة سالنتا ومملكتها . ويتدخل وسيطا للمصالحة بين الممالك المجاورة ،

وينجح فى ايجاد التحالف بينها لاقرار السلام والنهوض بالبلاد .

ويفقد تيليماك الأمل فى العثور على أبيه حيا، فينزل للبحث عنه فى عالم الموتى . ويتسلل خفية بصحبة الالهة مينرفا وتحت رعايتها الى كهف أكيروتتيا ومن ثم يعبر نهر الأكيرون فيصل الى الجحيم ، ويلتقى بأطياف الموتى ويسأل كل واحد عن سبب وجوده هناك ، ويستمع الى رواياتهم وكلها تدور حول الفضيلة والرذيلة ، والحكم السىء ومغبته . ويعود تيليماك الى الأرض وهو موقن أن أباه لم يدخل بعد عالم الموتى . ويشترك فى معارك تفصح عن كرمه فى معاملة أعدائه وأسراه ، وعن اشفاقه من سفك الدماء، وهو لا يستغل المهزومين ولا يسلبهم أراضيهم ، ولكنه يرشدهم وينصحهم ويدعوهم الى التفاهم والاتحاد . ويرجع تيليماك الى سالنتا ويعجب باصلاحات منتور وما صار اليه الريف من ازدهار ورخاء . ويقع تيليماك فى حب أنتيوب ابنة الملك ايدومنيه ، التى تعتبر صورة للفتاة المثالية ، ولكن منتور ينصحه بالتريث حتى ينتهى من مهمته . وترسو بهما السفينة عند جزيرة حيث يلتقيان بشخص غريب ويتبادلان الحديث معه ، ويشعر تيليماك بعطف كبير نحو الرجل ، وهو لا يعرف سر هذا الشعور ، ويرحل الغريب عن الجزيرة ، وتستولى على تيليماك حسرة يكشف منتور عن مصدرها عند ما يخبره أن هذا الرجل هو أوليس نفسه ، وتثور ثائرة تيليماك ويبكى مر البكاء ، ولكن منتور يهدىء من ثورته ويفهمه أنه لحكمة من أوليس أراد أن تظل شخصيته مجهولة حتى يصل الى ايتاكا متخفيا ويقضى على أعدائه . وبعد أن يزود منتور صاحبه الفتى بنصائحه الأخيرة ، يتجلى ثانية فى صورة الآلهة مينرفا ثم يختفى . ويسرع تيليماك فى الرحيل الى ايتاكا حيث يلقى أباه ويقاتل الى جانبه ، وينقذان بينلوب من الطامعين فيها .

أثار الكتاب عند ظهوره تأويلات كثيرة تلتقى كلها عند خط مشترك واحد هو نقد نظام الحكم وسياسة الدولة فى عصر الملك لويس الرابع عشر والتعريض بالأوضاع السائدة والشخصيات الحاكمة تحت ستار الأسطورة والواقع أن فينلون لم يقصد الى النقد أو التعريض وانما رسم صورة لما يعتقد أنه الحكم السليم فجاءت الصورة بطبيعة الحال مختلفة ومتناقضة مع الوضع فى ذلك الوقت .

وقد أخذ بعض النقاد على فينلون وهو الحبر الجليل ذو المكانة الدينية المرموقة كثرة حديثه عن آلهة الوثنية وتدخلها فى شئون البشر ، وتوجيهها لمصائرهم ، والحقيقة أن فينلون يتمشى مع التقليد الأدبى الكلاسيكى فى الاقتباس من الأساطير اليونانية واللاتينية القديمة ، وما هذه الآلهة الا رموز لقيم معينة ، وليس معقولا أن تبلغ البساطة بفينلون لى حد الايمان بها أو شد القارىء اليها . وقد حول فينلون الأسطورة الى تجربة صوفية ، فالعقل الذى تمثله الآلهة مينرفا هو « اللوجوس » أى الكلمة الالهية . ونظرية النعمة الالهية تحكم كل جوانب القصة . فتيليماك لا يستطيع شيئا بمفرده ، ولا يعتمد على ارادتها وحدها ، ويدعوه منتور الى التفانى فى الله واستمداد القوة منه ، فالعون الالهى كفيل باعادة القوة والهدوء الى قلب المؤمن الذى يقر بضعفه، واحاطته بالفضيلة فيما يفعل . وبالجمال فيما يرى ، وبانشراح القلب والصدر .

كذلك أخذ عليه النقاد اغراقه فى وصف تباريح الهوى ، وعذاب العشاق ، وما تفعله الشهوة فى الانسان ، تفقده ارادته ، وتضلل عقله ، وتستنزف قواه البدنية ، فى نوبات متلاحقة من الحمى العارمة وهذه صورة تيليماك العاشق المعذب : « كان يستلقى عند شاطىء البحر وتمر به الساعات لا تبدر منه بادرة ، أو يسعى هائما بين أحراش غابة يسودها الظلام ، وتجرى من عينيه دموع سخينة ، وتصدر عنه صيحات أشبه بزئير الاسود وقد هزل بدنه ، وغارت عيناه ، فى حمرة كالجمر ، حتى ليظن من يراه على هذه الحالة من شحوب الوجه ، وانهيار الجسد ، وتغير الملامح أنه شخص آخر غير تيليماك . » وقد أراد فينلون لبطله أن يواجه فى وقت مبكر أخطار الحب الجسدى ، مع كاليبسو وأوخاريس ، وما يتولد عنه من شقاء وانهيار ، ونشوة الحب الطاهر مع أنتيوب ابنة الملك ايدومنيه ، وهو حب قائم على العقل ، والعقل عند فينلون ليس ملكة استنتاجية مستقلة ، ولكنه مستمد من العقل الالهى ، فاذا حاد عنه تعرض للخطأ والضلال ، والحب عاطفة نبيلة اذا ابتعد عن الجسد وخضع لسلطان العقل .

وتحتوى قصة تيليماك على دروس فى أخلاق الملوك وسياسة الحكام . ونشهد فى القصة طائفة منهم يختلفون فى الفضائل والرذائل ، منهم سيزوستريس العادل ، وأدراست الظالم الغادر ، وايدومنيه الضعيف المتخاذل الذى لا ينقذه ذكاؤه وحبه للعدل من مفاتن الحكم واغراءات البطانة المحيطة به . وفى الفصل الأخير يودع منتور صاحبه بمجموعة من النصائح تلخص آراء فينلون فيما يجب أن يكون عليه الحاكم . يقول منتور ــ بلسان الآلهة مينرفا : « يا ابن أوليس ، اسمعنى للمرة الاخيرة اننى لم أعن بتعليم بشر عنايتى بتعليمك ، لقد أخذت بيدك وأنت تركب أهوال البحار ، وتجوب بقاعا مجهولة ، وتخوض حروبا دامية ، وتواجه كل المصائب التى يمكن أن يواجهها انسان . لقد أظهرتك بالتجارب الملموسة على الحقائق والأباطيل التى ينبنى عليها الملك . واستفدت من مصائبك وأخطائك على السواء .

« لقد ملأت الأرض والبحر بأخبارك ونوائبك . شأنك فى ذلك شأن أبيك . فاذهب الآن وحدك . فأنت جدير بالسير على خطاه ... حارب معه ، وكن مطيعا له كأى فرد من رعاياه ، وكن قدوة لغيرك ، وسوف يعطيك « انتيوب » زوجة ، وتنعم بالسعادة معها ، لأنك لم تبحث عن الجمال قدر ما بحثت عن الحكمة والفضيلة .

« فاذا توليت الحكم ، قرب اليك جميع رعاياك واستمع اليهم ، ولكن لا تصدق منهم الا القليل ، وحذار أن تبلغ ثقتك فى نفسك أكثر مما ينبغى . ابتعد عن مواطن الخطأ ، ولكن اذا أخطأت فلا تخش الاعتراف بخطئك أمام الآخرين .

« أحب شعبك ، ولا تدخر شيئا يزيد من حبهم لك . ان الهيبة والرهبة أمران ضروريان اذا فقد الحب ، ولكن ينبغى استخدامهما بقدر وعن كره ، كالدواء المر يتناوله الانسان مضطرا .

« كن بعيد النظر فيما قد يترتب على أعمالك من نتائج ، والجسيم منها على وجه الخصوص . واعلم أن الشجاعة الحقيقية تكون فى مجابهة الأخطار جميعها ، والازدراء بها عند ما تكون ملحة محتومة ..

« تجنب الرفاهة والترف والبذخ ، واجعل كل مجدك فى البساطة ، ولتكن فضائلك وحسناتك زينة لشخصك ، وزخرفا لقصرك ، وحمى لك من كل ما يحيط بك . وليتعلم الجميع منك معنى السعادة الحقيقية .

« لا تنس أن الملوك لا يحكمون من أجل مجدهم الشخصى ، ولكن لتحقيق الخير لشعوبهم ، ان ما يفعلون من حسنات يمتد أثره الى الأجيال الكثيرة من بعدهم . وما يأتون من سيئات يتضاعف جيلا بعد جيل . ان الحكم السىء يكون أحيانا وبالا على عصور كثيرة متعاقبة .

« اياك وهوى النفس ، فهوعدو لك ، تحمله معك أينما حللت ، الى ساعة الموت . يتسرب فى ثنايا أحاديثك ونصائحك . ويغدر بك اذا أنصت اليه .. يعمى العقول ، ويهبط العزيمة ، ويجعل من الانسان مخلوقا مترددا ، ضعيفا ، حقيرا ..

« واخش الآلهة ياتيليماك . ان مخافة الآلهة أعظم ذخيرة ينطوى عليها قلب انسان . وهى مصدر الحكمة والعدل والسلام ، والمسرة ، والملذات والحرية الحقيقية والوفرة الهانئة والمجد الطاهر النقى .

« هأنذا أتركك يا ابن أوليس ، ولكن حكمتى ستبقى معك أبدا . على شرط أن تفكر دائما بأنك لا تستطيع شيئا بغيرها ... » .

وطوال القصة نسمع الحكيم منتور يعلق ويشرح ويستنتج وينصح . فبالنسبةللقوانين لا ينبغى أن تصدر بصورة مطلقة ، ولكنها يجب أن تنبع من احتياجات الدولة وظروفها . وفى رأيه أن الثروة الحقيقية ليست فى وفرة الذهب أو اتساع رقعة الأرض الزراعية ، ولكن فى حسن أساليب الزراعة وفى خبرة السكان .

والأرض مصدر كل رخاء اذا أخلص لها أصحابها وشعار فينلون : أعطوا الأرض حقها تعطكم كل خيراتها . وسياسته الاقتصادية ترمى الى تخفيض الضرائب على المزارعين مع تقسيم الملكية بحيث تملك كل أسرة قطعة من الأرض تربطها بالوطن . وهو لا يغفل أهمية التجارةوعظمة النشاط التجارى وجماله لكن لابد من قوانين صارمة لضمان نزاهة التجار ومنع المضاربات المفتعلة التى تؤدى الى كوارث مالية ، وهو يحذر من الاستغلال التجارى ومن النفوذ السياسى الذى يطمع الأثرياء فى فرضه على الآخرين . والدولة اذا أحكمت نظامها واعتمدت على نفسها استطاعت أن تعيش فى سلام مهما كانت ثروتها معتدلة لأنها لا تكون مطمعا لغيرها ، ولا مصدر قلق لجيرانها ، وبذلك تتجنب الحرب فالحرب وبال على المنتصر والمهزوم على السواء ،ولكنها شر لابد منه فى حالة الدفاع عن النفس ، وخير وسيلة للوقاية منها هى خلق جيل من الشباب القوى المدرب ونشر الوعى بين صفوفه ، وتغذيته بالحب والاخلاص للوطن وتدعيم العلاقة بينه وبين الحاكم .

واذا انتقلنا الى مستوى العلاقات بين الدول ، نسمع الحكيم منتور يتحدث الى الملك ايدومنيه عن الاتحادات الدائمة والاجتماعات الدورية ،ويرسم صورة للمنظمة العالمية التى طالما راودت أحلام المفكرين والفلاسفة وتحققت فى عصرنا . ولا يغفل فينلون الدعائم الخلقية التى يجب أن تتبنى عليها

هذه الاتحادات ومن بينها احترام حرية الشعوب وتأكيد مبادىء العدالة والنزاهة والمحبة .

**

لم يكن فينلون أديبا بكل معانى هذه الكلمة، فمن بين العديد من الكتب والأبحاث والمقالات والرسائل التى نشرت له لا نجد غير جزء بسيط يمت الى الأدب الخالص . وقصة تيليماك نفسها كتبت لغرض تربوى تعليمى .

ولكن هذا لا ينفى عن الكاتب طبيعته الفنية الذواقة ، كان يحب الجمال ويحسه وينفعل به كأبدع فنان أو أديب . وأهم ما تتميز به القصة من الوجهة الأدبية تلك اللوحات الطبيعية التى تصور الرعاة فى حياتهم البسيطة الصافية بين المروج الخضراء الموشاة بالزهور من مختلف الألوان ، وقطعان الغنم بصوفها الأبيض تتماوج على أنغام المزامير وأشجار وارفة من هنا وصخور رابضة من هناك ، وسلاسل المياه تنساب بينها كخيوط من فضة لها ايقاع يجتمع بلحن المزمار ونغم القيثار فى نسيج من الموسيقى الملائكية تضفى على هذه اللوحات جوا من السعادة الروحية والجمال الخالد ببساطته ونقاوته.

وفن القصة فى تيليماك مدروس ولكن بغير تصنع ، متقن ولكن بغير جهد أو تكلف . و لا يشوبه الا شيء واحد هو الغرض التربوى الذى رسمه الكاتب لقصته . فالخطب المطولة كثيرة ، والسرد التاريخي والجغرافى يبعث الملل أحيانا والشخصيات أشبه بالدمى يحركها وينطقها كما يشاء ، ولكن ما أجمل ما تنطق به من معانى الحكمة والفضيلة والجمال والصفاء .

**

مقتطفات من تيليماك :

«يجب أن تدخل فى حسابك أن الجحود من طبيعة البشر ، ولكن لا يمنعك هذا من الاحسان اليهم ،واعلم أن ما تصنع من خير لا يضيع أبدا ، واذا نسيه الناس ، ذكرته الآلهة وجازتك عنه . وبعد فليس البشر جميعهم منكرين للمعروف فهناك من يقدرون الفضيلة ويتأثرون بها ..

« واذا أردت أن تحول بين الناس وبين الجحود، فلا تعمل على تقويتهم واثرائهم ، وتمكينهم من السلاح ، وتحقيق ملذاتهم وشهواتهم فكل هذا من شأنه أن يفسدهم ، ويزيد من شرهم وجحودهم ولكن عليك أن تقوم أخلاقهم وتبث فيهم روح العدل والصدق ومخافة الآلهة ، والأمانة والاعتدال والتجرد عن الهوى » .

**

« ان الذين يعملون بلا مبادىء محددة ، ولم يؤتوا القدرة على التمييز الصحيح بين البشر ، أولئك يتخبطون دائما فى طريقهم ، ويندر ألا يخطئوا ، انهم لا يعرفون تماما ما يبحثون عنه ،وما يقصدون اليه . انهم لا يعرفون غير الحذر . وأكثر من يحذرون من قوم الأشراف الذين يعارضونهم لا المخادعون الذين يتملقونهم ».

**

« لقد ارتكبت أخطاء جسيمة ، ولكنها علمتك كيف تعرف نفسك وتحذر هواها . ان الأخطاء الكبرى تؤتى ثمارا أعظم من تلك التى تؤتيها أعمال البطولة . فهذه تنفخ صاحبها وتملؤه غرورا

قاتلا ، بينما الأخطاء توقظ ضمير الانسان وترده الى الصواب والحكمة » .

**

« أنتيوب امرأة وديعة بسيطة عاقلة ، لاتأنف يداها من العمل ، وهى بعيدة النظر ، حريصة مدبرة قليلة الكلام ، جادة الفعال ، تعمل فى اتزان وأناة ، دائمة الانشغال ، لا تتردد ولا تحتار ، لأنها تحسب لكل شيء حسابه ، وتقدر له زمانه . تفخر بما فى بيت أبيها من نظام وتزهو به أكثر مما تزهو بجمالها . لا تعرف الهوى ولا العناد ، ولا الطيش ولا الغضب ، تصدر الأوامر واضحة محددة ، ولا تأمر الا بالمستطاع ، لا تعنف فى لومها ، وانماتنصح وتشجع . لا تتحدث الا بقدر ، واذا تحدثت أقنعت، فاذا ما رأت اصغاء من مستعميها ، احمر وجهها خجلا وتواضعا » .

**

« ان الحاكم الذى يبحث عن كل صغيرةوكبيرة فى مملكته ، يخضع لظروف الحاضر فقط ، ولا يمتد بصره الى المستقبل البعيد ، فيضيق أفق تفكيره . لأن الحكم على الأمور لا يكون سليما الا بقدر ما يكون شاملا متكاملا متناسقا ، مسترشدا بالماضى ، مستشرفا للحاضر ، مخططا للمستقبل ، فى ضوء مفهوم واحد وتفكير واحد . والا كان مثله مثل مهندس البناء ، يجمع فى مبناه أروع الوحدات المعمارية من عمد وسقوف وجدران وردهات ، ولكنها فى تركيبها تخلو من التناسب والانسجام ، لأن صاحبها انصرف الى التفاصيل القريبة وأغفل النظرة الشاملة البعيدة ».

**

« اذا اعتاد الملوك ألا يعرفوا من قوانين غير قانون الارادة المطلقة ، أصبحوا قادرين على كل شيء . ولكن لأنهم لا يحكمون وفق قاعدة معينة وحسب مبدأ مرسوم ، ينهار سلطانهم من أساسه، اذ يصبحون بلا شعب ، ولايبقى لهم غير مجموعة من العبيد تتناقص يوما بعد يوم . أما العقلاء والحكماء فيهربون ويختبئون ، ويشكون فى صمت . وليس غير الثورة المفاجئة العنيفة وسيلة لرد الأمور الى طبيعتها ، وكثيرا ما تكون هذه الثورة التى تستهدف التقويم والاصلاح سبيلا للاطاحة بالحكم والقضاء عليه ».

**

ايليا نعمان حكيم